الانتقال المثلث: عن مذكرات جاك بيرك

الحياة - ٢/٣/٩١م

غسان سلامة *

■ تعمدت ألا أفتح الكتاب الذي دون فيه جاك بيرك، المستشرق الفرنسي المعروف، حياته من على جانبي المتوسط، الا وقد وصلت لمدينة الرباط. وفي ذهني أن مشهد الودايا، والمدينة الاسلامية، والقصور الملكية، وقبر الجنرال ليوتي الذي اثار بناؤه حفيظة القوى الوطنية المغربية، منبه كاف لي، كي اقرأ تلك المذكرات، بما ينبغي من الابتعاد المفهومي، ذاك الابتعاد الذي رأى فيه برتولد برخت في نظريته عن المسرح، القاعدة الأساسية لحضور راشد لأي عمل مسرحي.

لقد اصبح الاستشراق فعلا نوعا من الخطيئة التي يصعب تبريرها، لا سيما منذ صدور كتاب ادوارد سعيد الذي نجح في تبيان العلاقة العضوية بين المستشرقين وسياسات دولهم. ولكن هذا الكلام القاسي عن الاستشراق، كان لا بد له ان يثير تحفظنا، سيما عندما رأينا أبعد الفئات عن الروح العلمية في بلادنا، تتلقفه كالرغيف الساخن. وبدا لنا آنذاك ان هناك تفاهما بين المستشرقين في تياراتهم الاساسية وبين الفئات السلفية في بلادنا (على الرغم من اشتباكات هذين الطرفين اللفظية المتكررة)، على التركيز على خصوصية ثقافتنا. فالسلفي، كالمستشرق العادي، يجد سببا لوجوده في تلك الخصوصية الثقافية المزعومة، التي حملت هذا وذاك على التركيز على «خصوصية» اللغة العربية كلسان، و«خصوصية» الجمل كوسيلة انتقال. وبتنا نخاف من أن ياتي مهندس نفط لا تنقصه روح الدعابة ليؤكد لنا «خصوصية» النفط المستخرج من تحت رمال صحارينا.

انه لتواطؤ عجيب فعلا بين جيل السلفيين وجيل المستشرقين، ادى الى ولادة عدد من المفاهيم المتداولة بكثرة كعلم السياسة الغربي، وعلم الاجتماع الاسلامي، والتنمية الاسلامية، والديمقراطية القبلية وما شابه. وكم رأينا من المستشرقين من اكد لنا ان بلادنا العربية ليست بحاجة الى اي من مؤسسات الغرب كالديمقراطية وحقوق الانسان والتنمية الشاملة والتحديث المستمر بسبب من خصوصيتها الثقافية. وكم كانت اسارير زملائنا من مشعوذي الاصالة تنفرج عندما يسمعون هذا الكلام المطمئن على صحة مجتمعاتنا ان هي تمسكت باصالتها!

لذلك، تستوقفنا مذكرات جاك بيرك، وبالذات لأنه ليس مستشرقا عاديا، ولأن تركيزه على الاصالة كمفهوم مركزي، لم يدفعه يوما، كل زملائه، الى اعتبار العرب كشخوص في متحف تراثي، تنبغي المحافظة عليه بأي ثمن. وعلى الرغم من انه لا يقول ذلك بوضوح، فان القارىء يشعر بأن انتقاله التدريجي من مغرب العرب الى مشرقهم، قد ساعده بالذات، على الانتقال من الاستشراق العادي، الساكن، المهووس بالخصوصيات، المهجوس بتعميق الفروقات بين الثقافات والحضارات، الى نوع من التعرف على العرب كما هم، أي في بحثهم الحثيث عن الذات خارج المومياءات السلفية التي يسترجعها المستشرقون بحماسة.

وكان انتقال بيرك من المغرب للمشرق ذهنيا ومهنيا في الآن معا. فعلى المستوى الذهني، بدا لبيرك ان العروبة تتحرك في المشرق وتبقى ساكنة تراثية في المغرب، فانتقل من الجزائر حيث رأى النور، ومن المغرب الاقصى حيث عمل، الى مصر ولبنان والعراق حيث رأى، في الناصرية وفي اعدائها، عروبة تتحول سياسات، لا اسلاما عربيا تراثيا كما كانت الحال في المغرب. وكان الانتقال مهنيا ايضا فبيرك كان في الجزائر ابن مستعمر فرنسي، وفي المغرب موظفا في الادارة لا بل، لفترة على الأقل، في المخابرات العسكرية. بينما بيرك المشرقي، باحث واستاذ وخبير ثقافي في اليونيسكو. ويقيني انه يمكننا تصديق بيرك حين يقول انه مع استقالته من الادارة في المغرب، لم تعد له علاقة بسياسات حكومته.

والذين يعرفون بيرك، واستمعوا اليه في محاضراته العامة، سيدهشون بعض الشيء من التواضع الكبير الذي سيجدونه في مذكراته والذي لم يعرفوه دائما عنه. يفاجئك بيرك بنظرته الحاضرة عن شبابه فعلا، فهو لا يركز على عطشه للعلم، ولا على بعد نظر عرف به من صغر، ولا عن مواقف سياسية تقدمية، لا يتردد بيرك لحظة في التركيز على ما كان شبابه عليه فعلا (وشباب معظمنا): عطش جنسي غير محدود، هذا العطش الذي امتلك جوارحه حتى سن الثلاثين.

ولا يتردد بيرك لحظة بالتأكيد، انه، كغيره من ابناء جيله، لم يكن يعتقد ان سيطرة فرنسا على شمال افريقيا محكومة بنهاية قريبة لذا فهو لا يدعي بعد نظر في الوطنية لم يكن له في تلك المرحلة. بل هو يعترف فعلا بأن الفروقات الادارية بين احتلال الجزائر وضمها، والحماية المفروضة آنذاك على المغرب الأقصى، كانت فروقات سطحية. فالسيطرة الفرنسية كانت تكاد تكون نفسها في البلدين، وفي تونس ايضا، بينما أهل البلاد يحكمهم نوع من الرقاد الوطني، نوع من السبات الساكن، الذي جعلهم ينكفئون في الآن معا عن التعاون مع المحتل وعن الدفاع عن مصالحهم، ولو ان بعض فورات الدفاع عن الكرامة كانت تهز في الاحيان مضاجعهم. هل كان الامر خنوعا بسيطا؟ ربما ان الجواب السياسي هو نعم. ولكنه خنوع ملتبس، بني على الشك بصدق اي سلطة، محلية كانت ام اجنبية، وهو خنوع كان يسير يدا بيد مع نمو الروح الفردية، بل مع نوع من الانانية لم تعرفه المجتمعات المغربية في تاريخها وهي حال وصفها بيرك في اماكن أخرى «بالفردية الباحثة عن شخصية»، اي بنوع من النمو السريع للأنا، على أسس من التشوه الثقافي العميق وفي التشوه هذا، رأى بيرك عن حق، مأزق الحداثة العربية الراهن.

ويرى بيرك بداية النهاية، لاستعمار فرنسا في صبيحة يوم خريفي من سنة ١٩٤٢ نزلت فيه القوات الاميركية على شطآن المغرب. يومها فهم المغاربة ان الاستعمار الذي يحكمهم منذ قرن، أضعف فعلا من قوى عالمية أخرى جاءت تنصره في أوروبا وتخذله في المستعمرات. ولا يأتي بيرك بأدلة فعلية تثبت اهمية الانزال الاميركي على نمو الروح المعادية للاستعمار الفرنسي. ويقيني انه، في هذا المجال، كما في امور اخرى تتعلق بالولايات المتحدة، يميل للمبالغة في تقدير وزن الدور الاميركي، وفي موقف المغاربة منه. وشعوري ان مسافة ثقافية كبيرة كانت موجودة بين عرب المغرب واميركا في ذلك الحين، كانت تمنعهم عمليا من استيعاب العنصر الاميركي في مشروعهم السياسي الاستقلالي وربما أن ضعف فرنسا كان يؤثر عليهم اكثر بكثير من قدرة اميركا. ولكن بيرك يبدو حتى اليوم مترددا بالاعتراف بذلك.

وفي آخر مهماته الادارية في المغرب، يحاول بيرك بناء تجمعات فورية انتاجية محلية، بحيث يفصل الحداثة عن الاستعمار، ويدخل مبدأ الانتاجية الاقتصادية الى قلب الثقافة المحلية. وتفشل التجربة طبعا. ويفسر بيرك الفشل بأمور كثيرة، ولكنه يخيب الامل بابتعاده عن أمر اساسي، وهو بالذات ارتباط تلك الحداثة بصانعها الاستعماري. ولعبد الله العروي صفحات قيمة في هذا المجال، اي في مجال تأصيل السلفية المغربية من خلال دمج تلقائي لوسائل الحداثة ولخطط الاستعمار، وهو دمج حكم السياسة المغاربية في ما تلا وجعلها تخلط بين الروح الوطنية وبين التمسك بالقيم السلفية وبالخطاب التراثي. ويبدو احيانا للمشرقي انه مرّ وابناء اقليمه بنوع من المختبر الثقافي العنيف منذ الخمسينات، اختلطت فيه (وتزاحمت) مفاهيم الوطنية والقومية والدين، بينما استطاع المغربي البقاء على نوع من الثنائية المطمئنة بين التراث والحداثة. وتزيدنا زياراتنا للبلدان المغربية شعورا بأنها ثنائية هشة قابلة للانفجار في أية لحظة.

في مطلع الخمسينات، ينطلق بيرك نحو المشرق، ولا تجده متعاطفا في مصر مع الناصرية الا عن بعد. فاللواء نجيب اقرب الى قلبه من عبد الناصر، والناصرية في عينه وفي الاساس بيروقراطية. ولكن بيرك لا يتحفظ لدرجة الحنين للخديوي وللتقليد. انه «تقدمي» بمعنى انه يرى في ثورات العالم الثالث، بما فيها العربية، نوعا من النضال في سبيل العقلنة، وفي سبيل هوية ذاتية مندرجة داخل التطور العالمي. من هنا تركيزه، وربما ان ذلك أفضل ما عنده، على تلك الجدلية بين المنحى العالمي لكل تطور وبين الثقافات المحلية بوصفها شكلا، وعاءً لتحرك المجتمعات. وان كان بيرك آنذاك يميل للتقصير في تقدير موقع الدين في الثقافة ومنها، فذلك ما يعترف به اليوم واجدا له تبريرا شبه مقنع في أن ابناء تلك المرحلة كانوا أنفسهم غير مقدرين دور الاسلام اكثر منه. ولكن هذا الاعتراف المتاخر لا يحمل بيرك، على ما يبدو، لاعادة نظر جوهرية في نظرته لدور الدين في الثقافة والمجتمع، بهدف تعظيم ذاك الدور.

ويحمل بيرك من جراء ذلك مواقف واضحة، هي في الواقع تؤيد العراق المحدث ازاء ايران الحالية، وتفضل جزائر الشاذلي على جزائر بومدين، وتميل اجمالا للتباعد عن سورية الحاضرة، بينما ترى في ليبيا خيبة أمل. ولبيرك وصف للموارنة جاء في جملة متكاملة أفرزتها سنوات سكناه في بكفيا (وهي ايضا مسقط رأس آل الجميّل): «الموارنة فلاحون مزعومون لشدة انخراطهم في التجارة العالمية. وكوسمبوليتيون مزعومون لمتانة ولاءاتهم العتيقة. فهم يوظفون دراية في الأرض قديمة في الزراعات المربحة، ولكنهم يحافظون على علاقة بشجرة التفاح، كما بتوت دور القز سابقا، بطريقة اسطورية. والموارنة شطار في اللغات وفي تدبير الحال، ولكنهم منكفئون على استقلاليتهم ومستعدون لخسارة أنفسهم بدل أن يخسروها». وعن كمال جنبلاط كلمات ثلاث فقط: «ارستقراطي، عميق، ومنزلق» وبيرك اجمالا قاس بحق النهضة العربية التي تحولت في معظم الاحيان الى «ترجمات ووساطات».

أهم ما في سيرة بيرك طبعا يبقى الانتقال: الانتقال من المغرب للمشرق (وهذا ما فشل في القيام به معظم المستشرقين الفرنسيين الذين عرفنا)، والانتقال من الادارة الاستعمارية للبحث والوصف والتحليل (وهذا ما كان يشك ادوارد سعيد في كتابه المعروف بمجرد حصوله)، والانتقال ثالثا من الاستشراق كممارسة هواية في علم الاثار والكنوز المتحفية، الى الاستشراق كممارسة متفتحة للعلوم الاجتماعية، أيا يكن ميدان تطبيقها الجغرافي. وان كان هذا الانتقال المثلث مقياسا لنجاح سيرة، فبيرك، قد نجح الى حد كبير، ولو انه ينهي سيرته الذاتية بقدر لا بأس به من الاحباط المهني لا يخفف منه الا انكبابه على ترجمة خاصة للقرآن الكريم للفرنسية (ننتظر صدورها، ونتوقع لها كتابة أميل للشاعرية الصوفية منها للأحكام الشرعية)، واصطحابه لزوجة ثانية شابة، ايطالية، ارستقراطية الأصول يبدو من السيرة انها تضفي على شيبوبته الثمانينية شبابا وقادا.

هذا الانتقال المثلث من المغرب للمشرق (عبر فرنسا)، يدفعنا مجددا للسؤال الذي يشغلنا ونحن نسير في أزقة الرباط، عن مدى الترابط الفعلي، العميق وغير المصطنع، بين المغرب والمشرق، في السياسة والثقافة، والمستقبل. فنحن لا تلزمنا باريس، ولا غيرها من العواصم، للوصول والربط، بل تنقصنا حتى الساعة على ما يبدو، قراءة راشدة للخصوصيات كما للعناصر المشتركة بحيث تصبح الرباط وتونس ووهران ارضا في الآن معا غريبة قدر حقها من الغرابة، وأليفة قدر حقنا عليها بالالفة. ان في هذا التوزين المحق بين الغريب والأليف، مدخل أساسي لأمر طال انتظاره: اعادة تحديد معنى اللحمة العربية الواحدة في زمن قيام المحاور والتجمعات الاقليمية الجديدة.

---

* أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الأولى.